حادث مضيق هرمز والإستراتيجية الإميركية

بقلم جورج فريدمان؛ ستراتفور

هددت الزوارق السريعة الإيرانية، على ما قيل، السفن الحربية الأميركية في مضيق هرمز في ٦ كانون الثاني. ومنذ ذلك الحين قطعت الولايات المتحدة أشواطاً بعيدة للتشديد على التهديد الذي تشكله إيران للقوات الأميركية في المضيق- وإمتداداً، الخطر الذي تشكله على نقل النفط من منطقة الخليج الفارسي. لقد كانت مسألة إظهار التهديد الإيراني في مضيق هرمز مفيدة جداً للولايات المتحدة، حيث أنها جاءت قبل رحلة الرئيس جورج دبليو بوش تماماً الى المنطقة. وسوف تستخدم واشنطن الحادث للدفع بإتجاه إئتلاف معاد لإيران بين دول الخليج العربي، بالإضافة الى دفع إيران للعمل علناً مع الولايات المتحدة حول مشكلة العراق.

وبحسب تقارير أميركية وشريط فيديو تم نشره، فقد إقترب عدد مهم من الزوارق الإيرانية السريعة من ثلاث سفن من قوة الحماية البحرية الأميركية كانت تتحرك عبر المضيق قرب الحدود الإيرانية في ٦ كانون الثاني.(بدأت كلمة الحادثة بالظهور في ٧ كانون ثاني.) بالإضافة الى ذلك، ذكرت الولايات المتحدة في تقريرها بأنها تلقت رسالة تهديدية من الزوارق.

وعقب الحادث، بدأت الولايات المتحدة بالتراجع عن الإدعاء بأن الإيرانيين أصدروا تهديدات ضد السفن، قائلين بأنه ربما كان مصدر البث أشخاص مزعجون نقلوا تهديدات بالمصادفة في الوقت الذي كانت الزوارق الإيرانية تناور بين السفن الأميركية. إن رسائل البث المزعجة الصادرة من الشواطئ ليست بالأمر الغريب في المنطقة، أو في أجزاء أخرى من العالم، خاصة عندما يتم إستخدام ترددات معترف بها دولياً لمنصات قيادة ملاحية متقابلة. ومن الصعب ، إن لم يكن من المستحيل، تمييز مصدر البث خلال حادثة قصيرة وحادة كهذه . وقد زادت توليفة البث، بصرف النظر عن المصدر، والمهارة الإيرانية في الإقتراب بمحاذاة السفن الأميركية، من الشعور بالخطر.

هناك أمران مثيران للإهتمام. أولاً، إن إحتمال حصول هجوم إيراني منضبط- وبحسابات البحرية الأميركية، كان النشاط الإيراني منضبطاً- مسبوقاً بتحذير هو إحتمال ضئيل. فالإيرانيون ليسوا بوارد التخلي عن عنصر المفاجأة، الذي يعتبر أساسياً لهجوم فعال. وفي حين أن القائد في مسرح العمليات لا يملك ترف صرف النظر عن رسالة البث الموجودة بين يديه - بالواقع، يجب على القائد إفتراض الأسوأ – فإن وجودها يخفض أرجحية حدوث هجوم. فمهاجمة السفن بحاجة الى كل ثانية يمكن الحصول عليها لتنفيذ المهمة؛ فلو أن الإيرانيين كانوا جادين ، لكانوا أرادوا الظهور بمظهر اللامهدد قدر الإمكان ولأطول مدة ممكنة.

ثانياً، لم تفتح السفن الأميركية النار. نحن لا نعلم قوانين الإشتباك المصنفة سرية الصادرة الى قادة السفن الأميركية العاملين في مضيق هرمز،إلا أن صلب توجيهات تلك القوانين هي أن على القائد حماية سفينته وطاقمه من الهجوم في كل الأوقات. ومع إعطاء مثال السفينة الأميركية USS Cole، التي هوجمت بواسطة زورق سريع في مرفأ يمني، فإنه من الصعب بالنسبة لنا تصور ظرف ما لا يفتح فيها كابتن سفينة في البحرية الأميركية النار إذا ما شكلت الزوارق الإيرانية تهديداً مهماً.

وقال الناطق بإسم الأسطول الخامس في ١٣ كانون ثاني بأن السفن الأميركية كانت في غمار عملية تحديد التهديد والإستعداد لإطلاق النار عندما إنسحب الإيرانيون وإختفوا. وهذا الأمر يؤشر الى أن السرعة، المسافة، وإتجاه الزاوية لم تكن بعد عند مرحلة تتطلب رداً، ولذلك فإن مستوى التهديد لم يكن قد إرتفع بعد الى الخط الأحمر. ومع غياب نقل التهديد فليس واضحاً أن هذه الحادثة كانت لترتفع الى ما هو أعلى من مواجهات تصادفية متعددة بين السفن الحربية الأميركية والزوارق الإيرانية في مياه هرمز الضيقة.

ونقلت صحيفة الـ "نيويورك تايمز" رواية في ١٢ كانون ثاني، سُربت اليها، بشكل واضح، من قبل البنتاغون، مقدمة بذلك بعض السياق للهواجس الأميركية. وبحسب الرواية، فقد نفذت الولايات المتحدة أنشطة ألعاب حربية محاولة بذلك تقييم عواقب هجوم حاشد ومندفع بواسطة أعداد كبيرة من الزوارق السريعة الحاملة للمتفجرات وطواقم الإنتحاريين. وكانت نتائج هذه الأنشطة مدمرة. ففي لعبة حربية نُفذت في العام ٢٠٠٢، فقدت البحرية الأميركية ١٦ سفينة كبرى، بما فيها حاملة طائرات، طرادات وسفن برمائية (منظمة للهبوط العسكري من قبل القوات البحرية والبرية)- وكلها في هجوم مدته ٥-١٠ دقائق. إذ طغت على دفاعات الأسطول أعداد كبيرة من الزوارق السريعة الصغيرة الخفيفة الحركة، بعضها مسلح بصواريخ وأسلحة أخرى، لكننا نفترض أن معظمها كان يعمل كطوربيدات بشرية.

إن القرار بالكشف عن النتائج للعبة الحربية كان المقصود منه، وبوضوح، إعطاء المصداقية للتحذير العلني الموجه لإدارة بوش بشأن التكتيكات الحاشدة. إنه يرفع قضية سبب عدم فتح السفن الأميركية النار، مع ما هو مسلم به بأن اللعبة الحربية كانت لا بد وأن تنتهي ببعض قوانين إشتباك عدوانية جداً ضد زوارق إيرانية سريعة في مضيق هرمز. إلا أن الأمر الأهم هو أن القرار يكشف شيئاً ما عن تفكير الإدارة في سياق رحلة بوش الى المنطقة وتقرير تقدير الإستخبارات الوطنية المثير للجدل (NIE) حول برنامج إيران النووي.

وقد برز جدل ضخم حول تقرير الـ NIE ، مع إحتجاج الكثيرين بأنه كان مدسوساً أُكرهت الإدارة على قبوله ضد إرادتها. أما قراءنا فيعلمون أن هذا الأمر لم يكن وجهة نظرنا، ولا يزال كذلك. لقد كانت تصريحات بوش حول تقرير الـ NIE منسجمة ومترابطة. أولاً، إنه لم يأخذ بالموضوع الذي يتضمنه. ثانياً، إنه مستمر بإعتبار إيران بمثابة تهديد. إذ أن إحدى أهدافه، في سفره الى الشرق الأوسط، هي إنشاء إئتلاف أقوى معاد لإيران بين الدول العربية لشبه الجزيرة العربية. ولم يكن التهديد النووي عاملاً قوياً كافياً لخلق هذا الإئتلاف. فلمجموعة كبيرة من الأسباب تتسلسل من الإخفاقات الإستخبارية الأميركية في العراق وصولاً الى الإطار الزمني لتهديد نووي إيراني، لم يكن يُنظر الى البرنامج النووي، وببساطة، كأساس موثوق للخوف من أنشطة إيران في المنطقة. فدول شبه الجزيرة العربية كانت متخوفة من هجمات أميركية ضد إيران أكثر بكثير مما هي متخوفة من رأس نووي إيراني في خلال ٥ أو ١٠ سنوات.

أما مضيق هرمز فقضية أخرى. فحوالي ٤٠% من الثروة النفطية للمنطقة تتدفق من خلال المضيق. وخلال الحرب العراقية – الإيرانية في الثمانينات، قدمت حرب الناقلات، التي تعرضت فيها ناقلات النفط المتنقلة عبر الخليج الفارسي الى هجوم جوي، مشهداً ثانوياً. فهذه الحرب لم تهدد تدفق النفط فقط وإنما قادت الى وصول نسب التأمين على السفن الى القمة. وقامت الولايات المتحدة بتأمين المواكبة للناقلات، لكن حرب الناقلات لا تزال ذكرى مرعبة في المنطقة.

لقد كانت حرب الناقلات قليلة الأهمية مقارنة مع التهديد الذي دشنته الولايات المتحدة الأسبوع الماضي. فمضيق هرمز هوالممر الضيق المكتظ الذي من خلاله يتدفق نفط الخليج الفارسي. أغْلِق المضيق فلا يتدفق النفط. فمع سعر النفط الذي يقارب الـ $ ١٠٠ للبرميل، فإن إغلاق مضيق هرمز سيرفع السعر – تصريح غير كامل لأرفع رتبة. فنحن لا فكرة لدينا عما سيكون عليه سعر النفط إذا ما أُغلق المضيق. أما الأسوأ، فهو أن البلدان التي تشحن من خلال المضيق لن تحصل على أي من تلك الأموال. فمع سعر $ ١٠٠ للبرميل، فإن إغلاق مضيق هرمز سيأخذ إنتصاراً إقتصادياً ويحوله الى كارثة بالنسبة الى البلدان نفسها التي تريد الولايات المتحدة توحيدها في إئتلاف فعال معاد لإيران.

إن الكشف عن تهديد من إيران في مضيق هرمز قبل صعود الرئيس على متن الطائرة الرئاسية (آير فورس وان) في رحلته الى المنطقة كان عرضياً، هذا في الحد الأدنى. وأصر الإيرانيون على أنه لم يكن هناك شيئ غير عادي بشأن الحادث، وقال محمد علي الحسيني، النلطق بإسم وزارة الخارجية، بأن " بعض الفئات السياسية في الولايات المتحدة تتبع سياسة الإنخراط في المشاريع المحاطة بالمجازفات لمساعدة بوش على على نشر فوبيا – إيران في المنطقة. على الولايات المتحدة أن تعتذر من إيران، البلدان الإقليمية والشعب الأميركي". هذا الأمر لن يحصل على الأرجح، لكنه (بوش) سيكون ممتناً، من دون شك، لقول الإيرانيين بأنه لم يكن هناك شيئ خارج المألوف بشأن الحادث. فإذا كانت هذه الحادثة روتينية، وإذا كانت للألعاب الحربية الأميركية أية قدرة تنبؤية، فإن ذلك يعني بأن الإيرانيين هم في طور حوادث روتنية، أي واحدة منها بإمكانها أن تقود الى مواجهة عسكرية في المضيق. أما بوش فسيوزع التصريح الإيراني في كل محطة من محطاته.

ومع ترك السياسة جانباً للحظة، فإن التهديد البحري الإيراني هو تهديد واقعي، مباشر ومدمرلمصالح إقليمية أكثر من التهديد النووي في أي وقت. فبناء سلاح ذري كان يتخطى على الأرجح، قدرات إيران، في حين يعود بناء جهاز فقط - نظام حساس وغير مثمر ينفجر بظل ظروف متحكم بها- الى سنوات بعيدة. وبالمقابل، فإن التهديد البحري في مضيق هرمز هو بمتناول إيران الآن. أما النجاح فبعيد عن تحقيق رمية قوية بسبب تفوق القوة الواضح لصالح قوات البحرية

الأميركية، لكنها ليست إستراتيجية خيالية بأي شكل من الأشكال. كما أن عواقبها فورية وتؤثر على الدول الإسلامية بطرق لا تؤثر عليها ضربة نووية ضد إسرائيل. إن حمل السعوديين على الوقوف ضد إيران بما يتعلق بهجوم ما ضد إسرائيل هو أمر بالغ التأثير، بصرف النظر عن التهديد. فحمل السعوديين على التطور وزيادة فاعليتهم بخصوص التدفق النقدي في الوقت الذي تقترب فيه أسعار النفط من أعلى مستوياتها على الإطلاق لا يحتاج الى مقدرار عظيم من الحث والإقناع. فمهما حدث في مضيق هرمز في ٦ كانون الثاني، فقد وصل بوش الى المنطقة مع موضوع المصلحة الإقليمية الممتدة: المحافظة على مضيق هرمز مفتوحاً في مواجهة تهديد حقيقي. ونحن لسنا أكيدين بأن حاملة الطائرات Nimitz يمكن إغراقها بإستخدام زوارق صغيرة محتشدة ومندفعة.إلا أننا متأكدون من أن المضيق يُمكن إغلاقه أو جعله خطراً جداً على ناقلات النفط لفترة قصيرة من الوقت على الأقل. ونحن نعلم، كما هو الحال في حرب برية، بأن العثور على القواعد التي تطلق سفناً صغيرة كالزوارق السريعة سيكون عملاً شاقاً. هذا التهديد له أساس.

فبإسقاط التهديد النووي الإيراني وتحويل التهديد الى المضيق، ينقل بوش قضية إيران من واحدة تشمل الولايات المتحدة وإسرائيل الى واحدة تستثني إسرائيل لكنها تشمل كل منتج للنفط في المنطقة. ولا أحد منهم يريد لهذا أن يحصل، وعليهم جميعاً أخذ التهديد بجدية. فإذا ما تمكنت الولايات المتحدة من ترسيخ التهديد، فإنها تنتقل من مؤيد للوقوف ضد إيران الى الضامن للمصالح العربية نفسها. وإذا كان الثمن الذي يجب أن يدفعه العرب الى الولايات المتحدة للحفاظ على المضيق مفتوحاً هو المساعدة في إغلاق التهديد الجهادي في العراق، عندها يعتبر ذلك ثمناً زهيداً في الواقع.

هذا الأمر يضع إيران في موقف عصيب. فقبل صدور تقرير الـ NIE حول الإيرانيون بعض نشاطهم السياسي الى العراق. فإنحدار مستوى العنف قي العراق يعود جزئياً الى الزيادة، لكنه يعود أيضاً الى تخفيض إيران لبعض الأمور التي كانت تقوم بها هناك، تحديداً دعم الميليشيات الشيعية بالأسلحة والمال وإجبارهم على مهاجمة السنة. كما من الواضح أيضاً بأن القيود التي فرضتها على بعض السياسيين العراقيين الشيعة في تعامل هؤلاء مع نظرائهم السنة قد تحول. فالقانون الجديد الذي يسمح لأعضاء حزب البعث بالعودة الى الحياة العامة لم يكن ليُمرَّر من دون الموافقة الإيرانية.

لقد غيرت إيران، وهذا واضح، من أنشطتها في العراق كما غيرت الولايات المتحدة من موقفها بشأن الأسلحة النووية الأيرانية. إلا أن إيران تحفظت على مسألة التوصل الى توافق صريح بين وجهات النظر مع الولايات المتحدة حول العراق عقب تقرير الـ NIE. فالإنشقاقات الفئوية بدأت تتكشف قي الوقت الذي تقترب فيه الإنتخابات، ففي حين حول الإيرانيون سلوكهم، فإنهم لم يحولوا موقفهم العلني. أما الولايات المتحدة فترى أن تحولاً بموقف إيران العلني بمثابة أمر حاسم لإقناع الفئات العراقية، تحديداً الأحزاب الشيعية، بالتحرك نحو التوصل الى خاتمة سياسية. فكبح الميليشيات أمر عظيم، لكن الولايات المتحدة تريد، وبحاجة الى، الخطوة النهائية. إن تحول تقرير الـ NIE ، الذي سحب القضية النووية عن الطاولة، لم يكن كافياً لفعل ذلك. وبرفع مستوى التوتر حول تهديد حقيقي- تهديد له نتائج إقليمية لا جدال فيها- تأمل الولايات المتحدة بتشكيل النقاش السياسي الداخلي في إيران بإتجاه مشاركة صريحة في مسألة إعادة تشكيل العراق.

أما إيران فلا تريد إتخاذ هذه الخطوة لثلاثة أسباب جيدة. أولاً، إنها تريد الحفاظ على خياراتها مفتوحة. فهي لا تثق بالولايات المتحدة بعدم إستخدام إتفاق علني حول العراق كمنصة لزيادة النفوذ الأميركي في العراق وزيادة التهديد تجاه إيران. ثانياً، إن لطهران مشكلة سياسية محلية. فبنفس الطريقة التي شاهد بوش كتلة إحتجاج ضخمة من داعميه حول تقرير الـ NIE ، فإن الإيرانيين سيرون مقاومة لتعاون صريح ومفتوح. وأخيراً، إن الإيرانيين ليسوا واثقين من أنهم بحاجة الى إتفاق علني. فمن وجهة نظرهم، هم قاموا بما هو مناسب بشأن العراق، وقامت الولايات المتحدة بما هو مناسب بشأن تقرير NIE والأمور تتحرك بإتجاه مرضٍ. فلماذا المضي بإتجاه العلن؟ فالرغبة الأميركية بأن تظهر لشيعة العراق تخلي إيران علناً عن مطلب العراق الشيعي لا يخدم إيران على الإطلاق.

لقد إستخدم الإيرانيون تركيبة بناء ما قد ندعوه بَحْرية عصابات كرافعة مع الولايات المتحدة ووسيلة لتفريق الولايات المتحدة عن العرب. لقد كان جدل الإيرانيين مع العرب هو التالي، " إذا دفعتنا الولايات المتحدة بعيداً جداً، فإننا سنغلق المضيق. لذا إمنعوا الأميركيين من دفعنا كثيراً جداً". ورد الأميركيون بالقول بأن الإيرانين لديهم القدرة الآن على إغلاق مضيق هرمز، بصرف النظر عما تفعله البحرية الأميركية. ولذلك فإنه إذا كان العرب لا يريدون البقاء تحت رحمة إيران، فإن عليهم الإنضمام الى الولايات المتحدة في إئتلاف معاد لإيران يجعل إيران تحت السيطرة. وفي توددها الى العرب، ستشدد واشنطن على مدى خروج الإيرانيين عن السيطرة، مشيرة الى أن طهران تعترف بأن نوع المضايقة الذي شوهد في ٦ كانون الثاني هو روتيني. وبأن في أحد الأيام –وهو يوم ستختاره إيران- سيخرج هذا الأمر فعلاً عن السيطرة.

أما الإيرانيون فيكسبون كثيراً من إمتلاكهم القدرة على إغلاق المضيق، لكن القليل جداً من إغلاقه بالفعل. وتضع الولايات المتحدة إيران في موقف بحيث أن عرب الخليج سيسألون طهران عن تطمينات بأن إيران لن تقوم بأي عمل. وسيعطي الإيرانيون الضمانات، مؤسسين بذلك لبداية مطلب إقليمي بتلاشي زوارقهم السريعة وإختفائها، التي هي عبارة عن أسلحة هجومية بالكامل ذات هدف دفاعي ضئيل.
أما الولايات المتحدة، مع قيامها بتبسيط الوضع بالنسبة للإيرانيين بتقرير الـ NIE وعدم حصولها على الرد الذي أرادته، تعمل الآن على تعقيد الوضع مرة أخرى وذلك بإطار عمل جديد تماماً- إطار عمل أكثر فاعلية بكثير من الإطار السابق الذي إستخدمته.
وفي النهاية، إن الأمر لا يتعلق بمضيق هرمز. فإيران لن تتحدى البحرية الأميركية، كما أن البحرية ليست عرضة للإستهداف كما تدعي- ولذلك فإن الولايات المتحدة ليست ميالة لأن تكون ذات ردة فعل عنيفة إزاء أقل إستفزاز كما تحب أن تعطي إنطباعاً. لقد لعبت الولايات المتحدة ورقة قوية والقضية الآن هي ما إذا كان بإمكانها حمل إيران على الدخول في حل علني حول العراق.
أما الإيرانيون فيخرجون الى السطح بحل خاص. فهم لا يبدون متحمسين لحل علني. إن الإئتلاف المعاد لإيران قد يقوى ويتعزز، لكن وبقدر ما تعتبر هذه المناورة الأميركية ذكية، فإنها لن تؤدي الى إحضار الإيرانيين لعقد إتفاق علني. ولأجل ذلك، فإن القيام بتنازلات أكبر في العراق أمر ضروري. وفي إشارة أكبر لهذا الموضوع، وبما يتعلق بتوافق علني، فإن هناك حاجة للقيام بتعديلات سياسية في مسألة تصويرهما وإبرازهما العلني لبعضهما البعض، بخصوص " الشيطان الأكبر" والعضو المؤسس لـ "محور الشر" – أمر صعب القيام به في بلدين يواجهان سنوات إنتخابية.